زاوية

جندي أمريكي.. جندي عراقي

احمد ثامر جهاد

في طريق عودتي من زيارة اخيرة الى بغداد وعلى مشارف مدينة الكوت تحديدا، توقفت المركبة الصغيرة التي تقلنا جنوبا الى الناصرية، عند احدى نقاط التفتيش، كانت سيطرة مشتركة بين جنود من قوات التحالف وعناصر من الشرطة والجيش العراقي الوليد، بفضول طبيعي ادرت وجهي صوب النافذة لارى كم من الوقت سنبقى عالقين هنا مع سرب فوضوي من مركبات عدة، متباينة الالوان والاحجام والمهمات، لم اكن متفاجئا وانا اشاهد جنديا عراقيا هزيل البنية، وجهاً اسمر حرقته الشمس، يعلوه تعب حقيقي، ارهاق دفين تفضحه العيون الزائغة يمينا وشمالا بحثا عما هو مثير اكثر من بزة جديدة ترهلت على عود جسد مسكين، الى جوار جندينا المتعب، ثمة قامة طويلة مشدودة لجندي اشقر، لم اتبين هويته بالضبط، بدا بنظارته السوداء متأهبا وهو يتأبط سلاحا حديثا كالذي نراه في افلام ستالون او شوازنيغر، ليست المسافة بين صورة هذين الجنديين هي ماشغل تفكيري حينها، ولاهي مقصد القول هنا، انما السؤال الخجول الذي تناهى الى اسماعي بعد ان انزلت النافذة قليلا تجنبا لهواء فاسد وحرارة لاسعة احاطت بنا، كان الجندي العراقي يسأل رفيقه الغربي بكلمات متلعثمة وصوت منخفض: -

مستر هل افتش هذه السيارة أم..!!؟ لم يكن يقصد سيارتنا بالطبع.

للحظة خاطفة صدمت نظراتي الفضولية نظرات الجندي العراقي الحزينة، فارتبك احدنا وشاه ببصره بعيدا صوب ناحية اخرى، بدا لي ان صاحبنا لايعرف ماذا يفعل هناك وكأنه حشر عنوة، ليس بسبب صغر سنه او لاحتمال انه في جولته الاولى، بل لانه يعرف انه وبقية زملائه لم يكونوا احرارا فيما يقررون، فثمة رقيب او شريك اساسي يتولى مايجب فعله وكيفية القيام به، تساءلت مع نفسي هل هذا احد اسباب تردي اوضاعنا الامنية ياترى، طالما ان الامر ليس بايدنا تماما؟

ربما لسنا جاهزين بعد، او لسنا مجهزين كفاية او اننا محدودو الخبرة او غير مخلصين لوطننا، فكرت بغرابة القول اننا قليلو خبرة، خاصة ونحن ودعنا للتو اعنف اجهزة امنية لابشع دكتاتورية عرفها العالم.

بقدر ما احزنني منظر هذا الجندي حينما رأيته للوهلة الاولى، شعرت بوخز اشد من الاحباط واليأس الذي سببه هذا المشهد الواقعي اليومي، ازعجني غياب الحس الامني المبادر لدى جندينا المحروق دمه-كما يقال- الذي لصرامة مايتلقاه من زميله الغربي من اوامر ونواه، فقد حسه الخاص في تحديد اشارات الخطر الواجب معرفته وتطويقه اذا لزم الامر، قبل ذلك كنت احاول الاقتناع بافضلية تسليم الملف الامني الى العراقيين لتدارك تدهور الاوضاع الامنية في سائر المدن العراقية، ولكني ايقنت بان الشراكة القائمة في ادارة هذا الملف الشائك والحساس، الى الرغم من اهميتها الراهنة في نواحي تلقي الخبرة والمهارة، خلقت نوعا من الاتكالية ونزعت -ان لم نقل عرقلت- الى حد ماروح المبادرة في تقييم الموقف واتخاذ اللازم امام حالات واوضاع واحداث مختلفة قد تفوح منها رائحة خطر ما، تصورت ان اداء الجندي العراقي سيكون افضل لو كان مع زملائه العراقيين من دون سلطة اخرى توجه وتحدد وتترك له عملية التنفيذ فقط، هذه حياتنا ونحن اجدر بها.

غادرت مركبتنا الصغيرة من دون ان تخضع للتفتيش، اغلقت النافذة بهدوء، وارخيت جسدي على المقعد الساخن، بقيت افكر بابتسامة صديقي الجندي وهو يلوح لنا باشارة المرور من دون توقف، سيعود الجندي الى بيته حتما، يودع ضجره اليومي، ويحلم بامساك سيارة مفخخة ذات يوم، تحبط المؤامرة الدنيئة وتوفر على العراقيين دما بريئا يسيل هنا وهناك، بلارحمة.

قتل النيباليين البوذيين بالعراق وحرق المسجد الكبير بكاتماندو..

تأجيج ارهاصة عنف شديد بين جياع النيبال ضد المسلمين

رشيد الخيُّون

طالب بوذا، وهو عند البوذيين شخص مقدس، البشر باجتناب عشر خطايا، من أجل نيل السعادة، وهي: (القتل، السرقة، الزنا، الكذب، الافتراء، الشتم، الكلام الباطل، الطمع، البغض، الضلال(انجيل بوذا، ترجمة سامي سليمان شيا). وحث بوذا من أجل السعادة أيضاً أتباعه على مراعاة التأملات الخمسة في الأمور الاتية: المحبة للأصدقاء والأعداء على السواء، والشفقة على كل الكائنات الحية التي تتألم وتتعذب وتحزن، والفرح لفرح الآخرين ونجاحهم وازدهارهم، والنجاسة وهو إمعان النظر في النتائج المميتة لتأثيرات الفساد والخطيئة، وطمأنينة الفكر وصفاؤه وهدؤه.

حسب بيان أنصار السنَّة أنهم قتلوا النيباليين لبوذيتهم! فهل يختلف المسلمون مع واحدة من كراهة الخطايا العشر وممارسة التأملات الخمسة؟ فعلام يستعمل اسم الله بقتل أهل تلك المبادئ، وأي سنَّة تجيز لأنصارها الإفتاء بقتل أكثر من مليار إنسان، ينتشرون على أرض الصين واليابان والكوريتين والهند وجنوب شرق آسيا عامة؟

لو احتكم هؤلاء إلى الجغرافيا لوجدوا بلاد النيبال قصية مرمية بين أدغال وسهول وسط جنوبي آسيا، يحيطها عملاقان في كثافتهما البشرية هما الصين والهند، ومع ذلك آوت الإسلام، وتصالحت معه فكان في عاصمتها كاتماندو مسجد كبير. ولو حسبوا حساب حرية المسلم في تلك البلاد، التي لم تعترض عليهم بوذيتها في أداء صلاة جمعة أو صلاة عيدين أو تراويح، لشعروا بمروءة أهل هذا الدين، وتعلموا منهم شريعة التسامح إن لم يريدوا تصديق خبر أن الرسول ترك النصارى يصلون بصلاتهم في داخل المسجد النبوي.

ولو نظروا إلى فقر وجوع النيبالي، وهو يركب الصعاب ليعمل منظفاً أو طباخاً، في شركة أردنية لا أمريكية، لشعروا بالخجل من أنفسهم أن خناجرهم تمتد إلى من تغرب للقمة عيش أطفاله، ولا يجوز دينه وعقيدته إيذاء الحيوان، إلا في حالة الدفاع عن النفس القصوى، وهي واحدة من تعاليم بوذا.

ستون عاماً والزعيم الروحي للبوذية دالاي لاما، وهو بمنزلة المرجع الأعلى أو مفتي الديار في أعرافنا، يعيش متصوفاً يشعرك بالجنيد ومعروف الكرخي وسفيان الثوري، يعبد الله فوق أقرب نقطة من الأرض إلى السماء، حيث التبت، ولا ندري، كم يبعد قرار منحه جائزة نوبل من أجل السلام عام ١٩٨٩عن دهاليز السياسة الدولية نكاية بالصين.

وإن كان قتل النيبالي لتهاون أو تعاون أو تآمر مع أمريكا، حسب ادعاء أنصار السنَّة، ففقراء النيبال لا يعرفون أمريكا ولا يفقهون مفردات مثل الاحتلال والاستعمار والتحرير، لا يفقهون غير عودتهم إلى بلادهم بطعام وكساء إلى أطفالهم ومن يعيلون، فما هول الفاجعة وهم يردون إليهم بلا رؤوس! إذن، من يمتلك حق الامتعاض من عنف نيبالي ضد مسجد أو مكتب خطوط يعود لجماعة مسلمة، والزوجات والأمهات النيباليات تستلمن جثامين أزواجهن وأبنائهن تنقصها الرؤوس؟ كم يضايقنا مشهد أثر أو تمثال روماني أو مصري في المتحف البريطاني، أو اللوفر بباريس وهو يقف بلا رأس، فما هو الخطب أن تنظر جثة إنسان بلا رأس، وكم يكون الخطب أعظم لو شاهدت صفاً من الجثث بلا رؤوس، يمزق صدورها الرصاص والخناجر؟

يوم أقدمت طالبان على تكسير تمثالي بوذا وهما من آثار الدنيا القديمة الباقية، ولا يقلان شأناً عن شأن الهرمين، قدمت تجربة ودرساً في خراب النفوس، فالعقائد عند أغلب البشر مثل الأنفس، تؤذى وتخدش وتنكسر. أعطت صورة لا تقبل التأويل والتفسير عند أتباع بوذا، مُفادها أن في صدور المسلمين فؤوساً لا قلوباً، وإلا ما معنى تخريب تمثالين نقشا من قبل الإسلام بقرون في جبل هندوكوش بباميان؟ وتحول الجبل وما فيه إلى الإسلام في عهد الصحابة وظل التمثالان قائمين.

للتعريف، باميان هي مدينة جبلية أفغانية، محاطة بجبال هندوكوش، كانت يوماً ما مركزاً للديانة البوذية، نقرت في جبالها الصوامع والمعابد، تقع بين بلخ وهراة وغزنة، ومن يقرأ التاريخ يجد لهذه المناطق الثلاث حضوراً في التاريخ الإسلامي، ذلك لكثرة ما نسب إليها من متكلمين وفقهاء وسلاطين، إضافة إلى نوع الديكة الممتازة المعروفة بالهراتي.

قال ياقوت الحموي (٦٢٦هـ): باميان (قلعة حصينة، والقصبة صغيرة، والمملكة واسعة، بينها وبين بلخ عشر مراحل، وإلى غزنة ثماني مراحل، وبها بيت ذاهب في الهواء بأساطين مرفوعة، منقوش فيه كل طير خلقه الله تعالى على وجه الأرض، ينتابه الدِّعار، وفيه صنمان عظيمان، نُقرا في الجبل من أسفله إلى أعلاه، يسمى أحدهما سُرخبد والآخر خَنكبد، وقيل: ليس لهما في الدنيا نظير. خرج من هذه المدينة جماعة من أهل العلم) (معجم البلدان). ونقوش الطيور، وتمثالا بوذا العظيمان هي جزء من تركة أفغانستان الأثرية، ترتزق بها أفغانستان للتخفيف من أزمات اقتصادها الهالك، وتستعين بها ضد زراعة وتجارة المخدرات، فهما أعظم المقاصد الدينية لكثافة الحجاج والسياح.

فأية حكمة اقتصادية وسياسية وثقافية وحضارية انتهجتها جماعة طالبان، وأنصار السنَّة فرع من فروعها، في تحطيم هذين التمثالين؟ وهما يدران عملة صعبة، تبتاع بها الجماعة عربات التيوتا ذات المنشأ الياباني البوذي، وهما شاهدان على تاريخ فني نقش في صخور أعظم الجبال، يشيران إلى عالم استقر فيه الإسلام بعد قرون من البوذية. وهنا أُذكر بحكمة الوزير البرمكي في حفظ الأثر عندما أراد هارون الرشيد، في لحظة غياب العقل والزهو بالانتصار، هدم طاق المدائن، لكن نصيحة الوزير البرمكي منعت الكارثة.

قال ابن عبدوس الجهشياري (ت٣١٠ هـ): (أمر الرشيد يحيى بن خالد (البرمكي) بالتقدم في هدم إيوان كسرى، فقال: لا تهدم بناء دل على فخامة شأن بانيه، الذي غلبته وأخذت ملكه. قال (الرشيد): هذا من ميلك إلى المجوس، لا بد من هدمه! فقدر للنفقة على هدمه شيء أستكثره الرشيد، وأمر بترك هدمه، فقال له يحيى: لم يكن ينبغي لك أن تأمر بهدمه، وإذ قد أمرت فليس يحسن بك أن تظهر عجزاً عن هدم بناء بناه عدوك، فلم يقبل قوله ولم يهدمه(الوزراء والكتاب). فماذا لو تركت حكومة طالبان لحظة زهوها وغرورها بانتصار لم يتعد ذرة من زمن مثول سُرخبد وخَنكبد في جبال هندوكوش بباميان.

لكن هولاكو البوذي عندما اجتاح ديار الإسلام، مما وراء جيحون إلى ما وراء دجلة والفرات،لم يهدم مسجداً ولا ضريحاً، وظل سلاطين التتار يحكمون الشرق الإسلامي وهم بوذيون حتى أسلم حفيد هولاكو. جاء في تفاصيل إسلام الملك البوذي (إن غازان خان نطق بكلمة التوحيد في أوائل شعبان سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) بحضور الشيخ صدر الدين إبراهيم بن حمويه، ومعه جميع الأمراء (قيل أسلم معه مئة ألف مغولي) صار الجميع مسلمين، ولقد أقيمت الولائم والأفراح، واشتغل الحاضرون بالعبادة(جامع التواريخ، تاريخ غازان خان). إلا أن السلطان المسلم الجديد أسرع إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى، ربما كان ذلك بدافع المشورة والقصور في فهم الدين، فأصدر أوامره بهدم دور عبادة اليهود وكنائس المسيحيين ومعابد البوذيين والزرادشتيين. وجعل العمامة زياً رسمياً في البلاط، وألزم المسيحيين التمنطق بالزنار، مثلما فعل المتوكل العباسي، وألزم اليهود اعتمار القلنسوة، وعمم اضطهاد الطائفتين وما تأخر من البوذيين عن مرسوم غازان القاضي بدخولهم الإسلام، وعمم هذه الإجراءات على مختلف مناطق السلطنة.

وبعد أن استتب الأمر لهولاكو السنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨مـيلادية) جلس يستفتي الفقهاء في أمر الحكم وما يريده الناس، هل يفضلون إسلاماً مع الجور أم عدلاً مع البوذية؟ عندها أحجم الفقهاء عن الجواب إلا الفقيه الشيعي رضي الدين علي بن طاوس أجاب بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر (ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية). وحباً بالعدل أراد المحبون من العامة والخاصة لهذه الكلمة وقعاً في النفوس فنسبوها شفاهة إلى الإمام علي بن أبي طالب، لكن وصية الإمام لعامله على مصر مالك بن الأشتر تتناغم إلى حد ما مع هذا المعنى، قال له (يا مالك ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق (نهج البلاغة). فمن أين أتي (أنصار السنَّة.. كتيبة علي بن أبي طالب) بعظمة هذا الجور، وكل هذا التعطش إلى الدماء، والشوق إلى جز الرقاب؟

قُتل النيباليون البوذيون وأراهم كوكبة تخفق أرواحهم في فضاء الجنة، فلي ثقة غير محدودة بعدالة الله، أصحو معها من مخدرات النصوص وأغراضها، تقول: إن المظلومين جميع لهم جنات النعيم، وتحرم الجنة على كل مسلم جائر. قُتل النيباليون، وهم أضعف خلق الله إنسانا، لم يحتج لذبحهم وجهاء العروبة والإسلام مثلما احتجوا تضامناً لحفظ ماء وجه شيراك. ما تكلمنا وميزنا فرنسا عن غيرها بكتابة مقال (أما سمعت ياشيراك شكوانا) لولا التمييز بين بشر وآخر، بين نيبالي وكوري وبين فرنسي، بين صحفي وبين منظف أو طباخ. إن من الجرأة ضد الحق والمروءة أن يفتى بحز رقبة البوذي بينما لا يستغنى عن علمه الدقيق في الذرة والإلكترون، فجماعة أنصار السنَّة.. كتيبة علي بن أبي طالب أذاعت حفلة ذبحها البوذيين النيباليين والكوريين من على شاشة خلقها عقل بوذي وثني، وأن الآذان في الحرمين وثالثهما لا يستغني عن العقل البوذي والوثني في فرض من فروض الصلاة، فلم تعد أصوات أحفاد بلال الحبشي تخترق الآفاق بغير آلة بوذية أو مسيحية أو وثنية. اخجلوا من تخلفكم، فالخراب تجيده الثيران الهائجة، أما العلم والبناء فلا يجيده غير البشر. ورحم الله سفيان الثوري حين قال: (الفقه مع الرخصة أما التشدد فيحسنه كل أحد) لكن أين أنتم من سفيان الثوري القريب إلى السماء مثل قرب زعيم البوذية الروحي دالاي لاما إليها. قال سعيد بن الخميس: (رأيت سفيان (الثوري) في المنام يطير من نخلة إلى نخلة، وهو يقرأ: الحمد لله الذي صدقنا وعده(سير أعلام النبلاء).تحجرت هذه الجماعة وغيرها من متفرعات الإرهاب داخل مفاهيم لا ترى في البشر غير مشروع قتل وتدمير، وعشقوا الدم إلى حد أصبح عندها مادة عبادة. اعتادت على مشهد الذبح اليومي، فإن لم تجد نيبالياً أو كورياً جاهزاً للذبح ذبحوا من تأخر عن أداء الصلاة خلف أميرها، ومن لم ينفذ فتواه.

عوده على بدء (٣-٣)

الجيش وجيوبولتيكا الشقاق العراقي

طارق الخضيري

جال بخاطري وأنا أغادر مطار بغداد على متن طائرة أردنية تحلق بشكل غير أعتيادي لتفادي صاروخ يطلقه مقاومو الإحتلال، ما قرأناه في الأساطير الإغريقية عن فرسان أبوكاليبسي الأربعة للأقدار، وهم: الحرب والمجاعة والموت والأمراض المستعصية، الذين يهددون الإنسانية. فقد لمست عن كثب مؤامرة هؤلاء الفرسان وعظة ماثرهم وأنا في رحاب النصب التذكاري لكارثة العامرية أذرف دمعة على الصامتين ممن إجتثت ارواحهم صواريخ أمريكا إثر غزوة الكويت التي أفتعلها صدام قبل أربعة عشر عاما، ليعودوا ثانية وبدعوة تالية من القائد الضرورة لإكمال مهمتهم في أرض الرافدين.

ورحت اسأل نفسي إن كان دور هؤلاء الفرسان قد ولى واكتفينا بما فعلوا، أم أننا نتهيأ لمرحلة اخرى من المآسي تغذيها جذوة الفرقة والتباعد بين بعضنا بعضاً، ويزيد من جهالتنا وتهربنا من الواقع الخوف من المجهول ومناسك التعبد المفتعل والإنتهازية والدجل. إن هذه الأفكار تترجم شعورا مفعما بالألم لما رأيت عليه الوطن وأنا اغادره من دون أن أحدد موعدا للقاء ثان، وكأني أردد في خاطري ما أنشده الرصافي قائلا:

إليك..إليك يابغداد عني
فإني لست منك ولست مني
ولكني وإن كثر التجني
يعز علي يا بغداد أني
أراك على شفى هول شديد

تركت بغداد لأستقبل سيلا من الأسئلة عن واقع الحال في العراق من صحبي ومعارفي. وحين قصصت عليهم مشاهداتي وشكواي كما جاء أعلاه، لامني بعض الأشقاء العرب على رأيي الذي يدين سلبيات المقاومة العراقية، لأن مقاومة الإحتلال والقضاء على المتعاونين معه حسب رأيهم يجب أن تستمر مهما كانت التضحيات ومهما طال الأجل، كي تتحرر الأمة العربية كلها وفي مقدمتها فلسطين، من براثن الإستعمار. ولطالما سمعت مثل هذه الأقوال حين كان صدام في الحكم يذيق الشعب العراقي الأمرين من كأس عبوديته وشراسته. فقد مجدته أعداد من أبناء العروبة لمجرد تهديده بسحق إسرائيل وبمقارعة أمريكا، ولدفعه تعويضات مالية لعوائل الشهداء الفلسطينيين، في حين كان العراقي يتضور جوعا والسيف مسلط على رقبته من قائده، فقتل من قتل وعذب من عذب وشرد من شرد ليسكن المنافي، وباقي الشعب يئن من ضربات النظام التي أخرست بدورها حتى كلمات الدفاع عن فلسطين. فواعجبي للمنطق الذي يفرق بين فريسة أبن البلد وفريسة الأجنبي، ويلقي تبعية جميع مآسي العراق على مستعمر جائر متناسيا أن كل ما يقوم به المستعمر من ادنائة وخسة يمثل جزء اساسيا من نهجه ومهمته أو وفقا لمصالحه الخاصة، ولا يحاسب مواطن متغطرس يذيق العذاب لأبناء جلدته ولا يراعي ظروف بلده ومصلحة شعبه. كلنا على يقين بأن للإدارة الأمريكية أهدافها وإستراتيجيتها التي تتبعها من دون إلتفات لما تخلفه من ضحايا ودمار وترهل في مسيرة البلد الذي تستهدفه، غير عابئة بما يصيب الأنسانية من هشيم، شأنها شأن جميع الدول الإستعمارية الأخرى. أما أن نتغاضى عن فعلة زعيم متكبر من أبناء الوطن وهو يكيل العذاب لإبناء وطنه ويسوقهم كقطعان الخراف إلى مستقبل مظلم مجهول، ثم نمجده لأنه يطلق تحديات جوف للمستعمر، فهذا أمر يستحق وقفة لتبرير خطيئة الفكر. يستوقفني بهذا الشأن ما قاله الشاعر الغيور عمر أبو ريشة قبل أكثر من نصف قرن وهو يرثي الأمة العربية، قائلا:

أمتي كم من صنم مجدته
لم يكن يحمل طهر الصنم

لقد أوصل صدام عام ١٩٩٠ أقدام جيوش أمريكا إلى مياه الخليج التي كانت أمريكا تخطط لها منذ الحرب العالمية الثانية. فقد تمكنت أمريكا من تحييد بريطانيا في منطقة الشرق الأوسط في أعقاب محاولة تأميم نفط أيران ثم مغامرة السويس عام ١٩٥٦، إلا أنها لم تنل مبتغاها بعد في حينه. ولكن حين حصل صدام على دعم أمريكا لمغامرته ضد إيران التي أراد إستغلال مشاكلها الداخلية والخارجية التي تجابه ثورتها الفتية، من أجل تحسين صورته السيئة على المستوى المحلي والعربي بسبب توقيعه عام ١٩٧٥ على إتفاق الجزائر مع شاه إيران والتي تنازل بموجبها عن جزء من شط العرب (وليس من أجل مجابهة خطر الزخم الإسلامي الإيراني كما كان يدعي)فاجأنا بمغامرة الكويت التي استمرت براثنها إلى أن أستقرت جيوش أمريكا وبريطانيا في العراق. ولايخفى على المتتبع لتاريخ العراق الحديث ان الأهداف الرئيسة لإحتلال العراق في ربيع عام ٢٠٠٣ من قبل أمريكا لاتختلف جوهريا عن تلك التي تبنتها بريطانيا عند إجتياحها العراق خلال الحرب العالمية الأولى و إحتلال جيوشها بغداد في ربيع عام ١٩١٧، فظاهريا، كلتا الدولتين إدعتا تخليص الشعب العراقي من العبودية (العثمانية فدكتاتورية صدام على التوالي) ثم توجيه شعبه ومساعدته على بناء دولة حديثة، المقولة التي تعني السير في ركاب المستعمر. أما الغايات النهائية المهمة التي ضمرتها إدارة كلتا الدولتين فهي متشابهة إلى حد كبير على الرغم من تباعد الزمن بينهما، وهي؛ الهيمنة على المنطقة والحد من طموحات الدول الأخرى المناوئة لكل منهما؛ السيطرة على أنتاج النفط وأسواقه عالميا؛ إقامة الدولة الصهيونية وضمان مستقبلها كحليف مثالي. ولتأكيد بعض جوانب التشابه بين الحملتين، بالإمكان مراجعة المراحل التي مرت بها نشأة الدولة العراقية منذ بيان الجنرال مود عام ١٩١٧؛ فثورة العشرين؛ مرورا بتشكيل الحكومة المؤقتة وعهد الإنتداب الذي تم خلاله تعيين المجلس التأسيسي لإقرار الدستور وقانون الإنتخاب وإتفاقية النفط ولكن بعد التوقيع على معاهدة التحالف بين العراق و بريطانيا؛ فالإستقلال بمرحلتيه الأولى والثانية قبل وبعد الحرب العالمية الثانية، وظهور معالم الحركة السياسية الوطنية. فهل نحن في حالة عود على بدء؟

لقد تطور الفكر السياسي إبان الحكم الملكي، وبخاصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية حين أخذ العراق يتمتع بصيغة حكم برلماني يشابه من حيث تركيز السلطة بإيدي رئيس الدولة والفئة المنضوية تحت لوائه وبأقل درجة ممكنة من اسهام الشعب في إدارة الدولة، كما كان الحال في الملكيات الدستورية في العالم الثالث ومنها مصر وإيران. ولكن تحجيم الفكر والتنكيل بالخصوم السياسيين لم تكن بالبشاعة التي مارسها نظام صدام. فقد كانت هناك ممارسات لحرية الرأي عن طريق الأحزاب والصحافة على الرغم من الرقابة والتشديد على الفعاليات المناوئة لسياسة الدولة وفرض الأحكام العرفية وصدور الأحكام الجائرة بحق المعارضين وإعدام بعض قادتهم. في خضم ذلك، بقي العراق مرتبطا إرتباطا شبه عضوي ببريطانيا على الرغم من عضويته في منظمة الأمم المتحدة التي تؤهله للإنعتاق من براثن المعاهدة التي فرضتها عليه بريطانيا إبان عهد الإنتداب. ثم تدخل أمريكا على الخط لجعل العراق أحد مرتكزات سلسلة الأحلاف الغربية لمجابهة الإتحاد السوفيتي ومجموعة الدول الإشتراكية وحتى الدول التي أرادت أن تنأى بنفسها عن الصراع العالمي مثل مصر بعد سقوط الملكية فيها. وكتحصيل حاصل لعدم مواكبة العهد الملكي الظروف المستجدة التي تفرض تغيرا جذريا بإسلوب الحكم وفسح المجال لتثبيت معالم الديمقراطية، وبنهج السياسة الخارجية، قامت ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ لتلغي الملكية. ومما لاشك فيه أن تلك الثورة التي تبعتها إنقلابات عسكرية على مدى عشر سنوات وإخرها إنقلاب تموز عام ١٩٦٨ الذي جاء بحزب البعث العربي الإشتراكي ثانية إلى الحكم مع صدام حسين التكريتي، كانت لها إيجابيات وسلبيات كبيرة وكثيرة. من إيجابيات ثورة ١٤ تموز: التخلص من معاهدة التحالف مع بريطانيا وحلف بغداد الذي تبنته أمريكا وبريطانيا لتكملة الطوق العسكري الذي يترجم تطلعات الدول الغربية في محاربة الإتحاد السوفيتي والفكر الشيوعي؛ الغاء القواعد العسكرية الأجنبية على أرض العراق؛ الخروج من المنطقة الإسترلينية؛ وضع أسس للعدالة الإجتماعية ورفع المستوى المعيشي للطبقات الفقيرة، والمساواة بين أبناء جميع الطوائف؛ دعوة الشعب الكردي للاسهام في إعادة بناء الوطن بإسلوب واقعي؛ سن قانون لإستعادة ٩٩٪ من الأراضي غير المستثمرة من قبل شركات النفط الأجنبية حسب الإتفاقيات المبرمة بهذا الشأن؛ دعم حركات التحرر في فلسطين والجزائر بإسلوب بعيد عن فرض الرأي والتحكم بفعاليات فصائلها. أما السلبيات، ففي مقدمتها عدم الجدية في وضع منهج واضح لبناء مؤسسة ديمقراطية قوامها سلطة الشعب وذلك بسن دستور دائم يتم تبنيه من قبل ممثلي جميع الفئات الموجودة على الساحة. ومما لاشك فيه هناك هفوات اخرى كبيرة تتمثل ببعض القوانين الصادرة مثل قانون الزحف الذي مهد لجميع طلبة العراق الإلتحاق بالمرحلة الدراسية التالية من دون الإشتراك بالإمتحانات للمرحلة السابقة؛ ومنها عدم وضع آلية متكاملة لتنفيذ قوانين إقتصادية جديدة كفيلة بإنجاحها مثل قانون الإصلاح الزراعي وقانون رقم ٨٠ الخاص بإستغلال الموارد النفطية. ومما لاشك فيه أن من اهم العوامل التي أدت إلى إلقضاء على تلك الثورة وطموحاتها كانت قضية الكويت التي مثلت تسلط الفكر العسكري على مناهج الحكم بعد إنفراط عقد الجبهة الوطنية التي ضمت أحزاب المعارضة العلمانية إبان العهد الملكي من أجل الإصلاح أو التغيير، فأيدت الثورة. ومن العوامل الأخرى التي سرعت بالنهاية المأساوية للثورة في إنقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ كان: الصراع السياسي وما واكبه من حركات عسكرية للتأثير في مسيرة الحكم أو للإنفراد بالسلطة بين الحزب الشيوعي والأحزاب القومية (ومنها حزب البعث) التي كان يدعم بعضها اليمين المحافظ؛ السياسة غير المتوازنة التي تبنتها حكومة الجمهورية العربية المتحدة تجاه الثورة لحث الإلتزام بنهج سياسي موحد يسند مشروع الوحدة العربية؛ مناوءة بعض رجال الدين للفكر اليساري الذي كانت تتبناه شريحة واسعة من مؤيدي الثورة؛ قيام حركة البارزاني الكردية ضد الحكومة المركزية وحلفائها من الأكراد. كما كان لأمريكا وتخوفها من المد الشيوعي في المنطقة ولإهتمام بريطانيا بالحفاظ على مصالحها النفطية في العراق وإهتمامهما بتحجيم زخم الحركة العربية، يد خفية للقضاء على الثورة. هذه الصورة رسمتها مخيلتي وأنا أستعرض الإمكانيات المتوفرة للإصلاح في ضوء تجارب الماضي.

هل أنا يائس من إصلاح الأوضاع في الوطن؟ كلا..ولكنني أتوجس خيفة من صراع داخلي يؤدي إلى ثورة أو ثورات بين عرب وأكراد، أكراد وتركمان، سنة وشيعة، وحتى صراع داخل أي من هذه المجموعات أو فتنة تستفز الطوائف الأخرى كالمسيحيين والصابئة، في غياب قوى أمن وطنية قوامها أبناء جميع الأطراف والفئات العرقية والدينية. فتاريخ العراق الحديث يشير إلى أن الجيش العراقي كان عنصرا مهما في تحجيم الصراعات الداخلية بما فيها تلك التي كان مفادها التعنت الأثني أو العشائري، والتي كانت بمجملها ضد الحكومة المركزية وليس ضد بعضها بعضاً. أما الآن وقد تأصلت الخلافات وكثر الحديث عن الجغرافية السياسية لهذه الأطراف ومتاعبها أو معاناة أبنائها التي بالغت في سردها لإذكاء جذوة الفتنة الدعايات الصهيونية والغربية خلال العقود الأخيرة الماضية، أخذت قضية الإنتماء العرقي والديني والمذهبي تطغى على أية عقيدة أو فكر سياسي، مما قد يؤدي إلى صراع مسلح له مخاطره على وحدة البلاد مهما كان وزنه. من هذا المنطلق، يرى عدد كبير من الناس بأن خروج جيوش التحالف من البلاد يجب أن يتم بعد إكتمال بناء جيش وقوى أمن وطنية تتمكن من مواجهة التحديات. نعم، لقد أصابتني صدمة مما لمسته خلال زيارة قصيرة، ولكن لي عودة للتأكد مما رسمته الأحلام عن تماسك شعب العراق.

فلابد من عود على بدء لمرحلة بناء الوطن بعد أن تتجلى الأمور ويأخذ المنطق طريقه لفكر العراقي المؤمن بوطنه. فالشعب الذي تمكن من تخطي العقبات خلال فترة الإحتلالين العثماني والبريطاني، ثم استحدث دولة تتجاوب ومطاليب العصر خلال العهد الملكي على الرغم من السلبيات التي اكتنفت نهجه السياسي مما أدى إلى سقوطه صبيحة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨، بتأييد شريحة واسعة من الطبقة المتوسطة، ومنهم منشئ هذه السطور، لابد من أن يستأنف مسيرته بثقة وإعتدال مؤكدا وحدة أرضه وتساوي أبنائه في كل شأن، نابذا سلبيات التعصب الديني والطائفي والأثني العنصري، وزعامة الفرد أو شمولية الحكم، من أجل تقويم مبادئ الإنسانية على اشلاء الماضي البائس والحاضر المرير.